

الرقمنة وتأثيرها على علاقتنا بالكتاب الورقي

في العقود الأخيرة، أدت الرقمنة إلى إعادة صياغة علاقة الإنسان بالقراءة على نحو غير مسبوق، حيث لم يعد الكتاب الورقي هو الوعاء الوحيد للمعرفة، بل أصبح منافساً ضمن منظومة واسعة من الوسائط الرقمية التي تتضمن الكتب الإلكترونية، والأجهزة اللوحية، والهواتف الذكية، والمنصات السمعية. هذا التحول لا يمكن احتزاليه في ثنائية "مفيد/ضار"، لأن تأثيره يتجاوز البعد الوظيفي نحو إعادة تشكيل مفاهيم مثل العمق، والانتباه، والارتباط العاطفي، وحتى معنى فعل "القراءة" ذاته. وتشير الإحصاءات العالمية إلى أن ثلث القراء تقريباً يجمعون اليوم بين القراءة الورقية والرقمية، ما يعكس حالة تداخل لا صراع، تحكمها عوامل معرفية وعاطفية وسياقية (Pew Research Center, 2021). إن هذه المعطيات تفرض قراءة تحليلية تتجاوز الأحكام المعيارية لنفهم كيف غيرت الرقمنة علاقتنا بالكتب، وما الذي بقي ثابتاً في هذا التحول.

تُظهر دراسات علم النفس المعرفي أن التحول من الورق إلى الشاشة أثر بشكل واضح على عمق القراءة وطرق معالجة النصوص. فقد وجدت دراسة شهيرة أن القراءة الورقية تمنح القارئ تمثيلاً فضائياً أوضاع النص؛ فملمس الورق وإحساس التقليب يساعدان على تكوين "خريطة معرفية" تمكن من استرجاع أفضل للمعلومات (Anne Mangen). بينما تُظهر الشاشات - رغم سهولة الوصول - ميلاً إلى "التصفح السريع" بدلاً من القراءة المتمعقة، مع ارتفاع مستويات التشتيت بسبب الإشارات وتعدد المهام (Baron, 2015). ومع ذلك، فإن هذه النتائج ليست حتمية، إذ تشير مراجعات حديثة إلى أن القارئ المتمرّس على الوسائط الرقمية قادر على تحقيق مستويات مشابهة من الفهم والاستيعاب إذا تحكم في بيئة التشتيت وأعاد تشكيل عاداته القرائية (Clinton, 2019). وبذلك، فإن التغيير ليس في قدرة الإنسان ذاتها، بل في شروط الممارسة الجديدة التي فرضتها طبيعة الوسيط.

ومع توسيع القراءة الرقمية، برز سؤال جوهري حول طبيعة الكتاب الورقي: هل هو مجرد "أداة لنقل المعلومات"، أم يحمل قيمة رمزية وعاطفية تتجاوز الوظيفة؟ تشير الأبحاث الثقافية إلى أن الكتاب الورقي لطالما مثل رمزاً للهوية الثقافية، والاستمرارية التاريخية، والحميمية الشخصية، فهو ليس وعاءً محايضاً بل تجربة حسية كاملة: رائحة الورق، الحبر، الملمس، الرفوف المنزلية، الطقوس النفسية للقراءة الهدئة (Darnton, 2009). وتؤكد دراسات الإثنوغرافيا القرائية أن القراء غالباً ما ينسبون للكتاب الورقي معاني الانتقاء والطمأنينة والذاكرة، خصوصاً في سياقات التعليم والتكوين الثقافي الأولى (Sellen & Harper, 2003). في المقابل، يتميز الكتاب الرقمي بخفة الحمل، والبحث الفوري، وتعدد المهام، ما يجعله أداة وظيفية أكثر من كونه رمزاً ثقافياً. هذا لا يعني تراجع الكتاب الورقي، بل تحول دوره؛ فقد أصبح - في زمن الفائض الرقمي - رمزاً للبطء، والتركيز، والعودة إلى الذات، أي فعل مقاومة ثقافية لا مجرد وسيط معرفي.

أما الكتب الصوتية، فقد أعادت تعريف فعل القراءة ذاته، إذ لم تعد القراءة مرادفة للنظر في النص، بل أصبحت تجربة سمعية يمكن ممارستها أثناء الحركة أو الأعمال اليومية. وتُظهر بيانات شركة Audible أن الاستماع للكتب الصوتية ارتفع بنسبة تتجاوز 25% سنوياً في العديد من الأسواق العالمية (Audible, 2022). ويشير علماء الإدراك إلى أن معالجة النص المسموع تُنشط مناطق مختلفة من الدماغ مقارنة بالقراءة البصرية، مما ينتج تجربة إدراكية أكثر قرابةً من السرد الشفهي

التقليدي (Rosenblum, 2019). ومع ذلك، فإن طبيعة الاستماع – بكونها تجربة يسهل فيها الشرود – قد تؤثر على الاستيعاب العميق ما لم يُعد المستمع تنظيم انتباهه (Moore & Gordon, 2016). إن الكتب الصوتية لا تُضعف القراءة، بل توسيع معناها؛ فهي تعيد الاعتبار لثقافة الصوت في عالم طفت عليه الصورة، وتحل مساحة جديدة للذين يجدون صعوبة في المطالعة الورقية أو الزمنية.

في ضوء ذلك، يمكن القول إن الرقمنة لم تُلغِ الكتاب الورقي، ولم تُنعد القراءة معناها، بل أنتجت بيئة قرائية هجينة تجمع بين الورقي والرقمي والسمعي. إن مستقبل القراءة لا يقوم على صراع بين الوسائل، بل على تكاملها، حيث يصبح القارئ هو الذي يختار الوسيط وفقاً للسياق والهدف والحالة النفسية. فالقراءة الرقمية قد تناسب البحث السريع، والتنقل، والتعلم المهني المستمر، بينما القراءة الورقية قد تمنح العمق والهدوء والمعنى الرمزي، في حين توفر الكتب الصوتية بُعداً شفهياً يعيد تعريف فعل الثنائي نفسه. إن الرقمنة أعادت تشكيل علاقتنا بالكتاب لا بإلغائه، بل بإدخاله في منظومة متعددة الفتوات توسع مفهوم المعرفة بدلاً من تضييقه.

المراجع

- Audible. (2022). *Global audiobook consumption report*. Audible Inc.
- Baron, N. (2015). *Words onscreen: The fate of reading in a digital world*. Oxford University Press.
- Clinton, V. (2019). Reading from paper compared to screens: A systematic review and meta-analysis. *Journal of Research in Reading*, 42(2), 288–325.
- Darnton, R. (2009). *The case for books: Past, present, and future*. PublicAffairs.
- Mangen, A., Walgermo, B., & Brønnick, K. (2013). Reading linear texts on paper versus screens: Effects on reading comprehension. *International Journal of Educational Research*, 58, 61–68.
- Moore, D., & Gordon, R. (2016). Listening comprehension and cognitive load in audiobook consumption. *Applied Cognitive Psychology*, 30(5), 758–767.
- Pew Research Center. (2021). *Reading habits in the digital era*. Pew Research Center.

Rosenblum, L. (2019). *See what I'm saying: The extraordinary powers of our five senses*. W. W. Norton & Company.

Sellen, A., & Harper, R. (2003). *The myth of the paperless office*. MIT Press.